وفيها وقوف على الأطلال، وبكاء ونحيب لما أصاب الأطلال من بلى وتغير في المغاني وأمجاد في الرسوم وتبدل غزلانها بالغربان الباكية المنتحبة، ثم يعود فيصف ماضي عهده في هذه الرسوم التي كانت مليئة بالنساء الجميلات المائدات كالأغصان والعفيفات اللواتي لا يعرفن الريب ولا يكشفن الستر، وينتقل بعد ذلك لوصف الشراب فيصفها ويجيد بعشرة أبيات هي من أجمل ماقيل في وصف الخمرة في العصر العباسي، ولكنه يعود ليذكر الشيب الذي نهاه عن الجهالة ولهو الصبا، وأصبح بعيداً عن أحداث الزجاجة، وأصبحت الكأس تدور عنه إلى الندمان، ولكنه يعود يقول:

ولو شئت عاطاني الزجاجة أحور طويل قناة الصلب منجزل العصب

ليالينا بالطف إذ نحن جيرة وإذ للهوى فينا وفي وصلنا أرب

ليالي تسعى بالمدامة بيننا بنات النصارى في قلائدها الصلب

تخالسني اللذات أيدي عواطل وجوف من العيدان تبكي وتصطخب.

ولكنه رغم ذلك، فقد ارعوى للشيب الذي كفكف من غربه بعد أن رمي بالأربعين ووقره قرع الحوادث وما أصابه من نكبات.

ومن العجب العجاب أن هذه القصيدة لا تحتوي على بيت واحد في المديح على الإطلاق، بل يختمها أبو الشيص بأربعة عشر بيتاً في وصف السفينة أو المركب الذي أوصله للممدوح، ووصف السفينة هنا يحكم أيما إحكام سيما أنه يمزج في وصفه بينها وبين الناقة على اعتبار أنها ناقة من خشب ومن حديد لا يدمي متنها ولا صفحتيها عقد رحل ولا قتب، كما أنها لا تشتكي عض النسوع ولا يدمى أنفها من جذب الخشاشة:

يشق حباب الماء حد جرانها إذ ما تغرى عن مناكبها الخبب

إذا اعتلجت والريح في بطن لجة رأيت عجاج الموت من حولها يثب

ترامى بها الخلجان من كل جانب إلى متن مقتر المسافة منجذب

وبدون ريب فالقصيدة من أروع الشعر العباسي على الإطلاق لجودة سبكها ومتانة صياغتها وجزالة ألفاظها، إلا أنها لم توف غرض المديح، وإن كانت وفت وأجادت في رثاء الأطلال وبكاء الأحبة الذين عثر بهم الدهر وأنزل بهم